معهد تاريخ الكنيسة
إيبارشيَّة المعادي وتوابعها
الثُّلاثاء ١ يونيو سنة ٢٠٢١م

محاضرات مختصرة في تاريخ العقيدة المسيحيَّة (٣)

تمهيد

تكلَّمنا في المحاضرة الماضية عن المجامع المسكونيَّة الثَّلاثة الأولى، وأهم الهرطقات التي واجهتها، ووضع قانون الإيمان النِّيقاوي القُسطنطيني الذي تستخدمه الكنائس الشَّرقيَّة حتى اليَوم. ولأن هذه المحاضرة الثَّالثة عن تاريخ العقيدة المسيحيَّة هي الأخيرة في هذا الموضوع فسوف أكتفي بمقتطفات من هنا وهناك لكي أغطِّي أكبر قدر ممكن من هذا الموضوع.

مجمع خلقيدونية

مجمع خلقيدونية عُقد سنة ٤٥١م وهو الذي شطر الكنيسة الشَّرقيَّة الأرثوذكسيَّة إلى قسمين؛

القسم الأوَّل هو الكنائس الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة، أي التي تعترف بمقرَّرات هذا المجمع ولاسيَّما عقيدة الطَّبيعتَين في شخص السيِّد المسيح. وهذه الكنائس الآن هي: البطريركيَّات البيزنطيَّة الأربع القديمة، وهي القُسطنطينيَّة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم. والبطريركيَّات البيزنطيَّة الخمس الحديثة وهي روسيا وصربيا ورومانيا وبلغاريا وجورجيا. والكنائس البيزنطيَّة الستِّ المستقلة وهي قبرص واليونان والتِّشيك وسلوفاكيا وبولندا وألبانيا وكنيسة جبل سيناء. والكنائس البيزنطيَّة التي لها الحق الذَّاتي في إدارة شؤونها، وهي كنائس فنلندا واليابان والصِّين.

أمَّا القسم الثَّاني فهو الكنائس الأرثوذكسيَّة اللاَّخلقيدونيَّة أي التي لم تعترف بمقرَّرات هذا المجمع. وهي بطريركيَّتا الإسكندريَّة وأنطاكية، وما يتبعهما من كنائس، وهي الآن كنائس الإسكندريَّة وإثيوبيا وإريتريا والهند وأنطاكية وأرمينيا.

وفي مجمع خليقدونية، تحرَّرت أورشليم من سُلطة قيصريَّة فلسطين وأُعطيت المرتبة الخامسة بين الكراسي الكُبرى. وهكذا أُنشئ النِّظام الذي عُرف فيما بعد باسم "**الرِّئاسة الخُماسيَّة**" Pentarchie . فأصبح النِّظام البطريركي الخماسي يتضمَّن بطريركيَّات روما، القُسطنطينيَّة، الإسكندريَّة، أنطاكية، وأورشليم، بعد أن أُعطي لقب بطريرك لكلٍّ أُسقُف من أساقفة هذه المُدُن الخمس، إثر مرسوم إمبراطوري أصدره الإمبراطور جُستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)[١] في القرن السَّادس الميلادي.

أسباب انعقاد مجمع خلقيدونية

بعد انتهاء أعمال مجمع أفسس المسكوني الثَّالث، تطرَّف رئيس أحد أديرة القُسطنطينيَّة وهو الأرشيمندريت أوطاخي

١- إنَّ القوانين التي جمعها هذا الإمبراطور وصنَّفها، تُعدُّ من أكبر مآثره، وأثرٌ خالدٌ في الفقه التَّشريعي. وهي قوانين تُنظِّم العلاقات الإداريَّة والماليَّة والعائليَّة والخُلُقيَّة أيضاً. كما حاول في هذه القوانين تنظيم أملاك الكنيسة والأديرة ومحاكمات رجال الدِّين. ونفَّذ جوستنيان قوانينه بشدَّة وقساوة، واستعان في الوقت نفسه بالرُّهبان لوعظ الوثنيِّين وتبشيرهم، فأحرز نجاحاً عظيماً، وردَّ ثمانين ألفاً إلى الإيمان، وأنشأ تسعاً وتسعين كنيسة، واثني عشر ديراً. فكان عصره هو العصر الذَّهبي للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة من جهة النَّهضة الفنيَّة والمشاريع المعماريَّة. وبُنيت في عهده كنيسة آيا صوفيا سنة ٥٣٧م، ولقد نهضت الحركة الفكريَّة في عصره وازدهر الشِّعر. كما بنى دير سانت كاترين في صحراء سيناء عند سفح جبل موسى.
وبصورة عامة لم يُكتب النَّجاح لسياسة جوستنيان، إذ أنَّ مشاريعه تطلَّبت زيادة الضَّرائب التي أثقلت كاهل الشُّعوب في الإمبراطوريَّة.
وجدير بالذِّكر هنا، أنه حتى عصر جوستنيان الكبير (٥٢٧-٥٦٥م)، ظلَّت مدينة الإسكندريَّة هي مركز القيادة الفكريَّة في الشَّرق كلِّه، ولم تُظهر القُسطنطينيَّة تفوقاً في هذا المجال إلاَّ بدءاً من عصر جوستنيان الكبير. ولكن يعود خمود الفكر البيزنطي مرَّة أُخرى في الفترة الممتدَّة من منتصف القرن السَّابع حتى بداية القرن التَّاسع للميلاد بسبب مشاكل الإمبراطوريَّة مع الفُرس، ثمَّ مع العرب المسلمين، ونتيجة أيضاً لحرب الأيقونات التي شهدها العالم البيزنطي.

Eutyches (إفتيشيوس) مندفعاً لدحض بدعة نسطور، فسقط في هرطقة مضادة حيث قال: إنَّ المسيح مؤلَّف من طبيعة واحدة، وأنَّ الطَّبيعة البشريَّة ابتُلعت وتلاشت في الطَّبيعة الإلهيَّة، وأنَّ جسده بما أنه جسد إله، فهو غير مساو لجسدنا.

فحرمه فلافيانوس Flavian بطريرك القُسطنطينيَّة، ووافقه البابا لاون الأوَّل (٤٤٠-٤٦١م) أُسقُف روما الذي كتب رسالة مسهبة تُعرف باسم ''طومُس لاون'' والتي تحدثت عن وجود طبيعتَين في شخص السيِّد المسيح، وقد اعتُبرت قاعدة للمعتقَد المسيحي في موضوع طبيعة السيِّد المسيح عند الكنائس الخلقيدونيَّة.

فسعى أوطاخي لدى الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصَّغير (٤٠١-٤٥٠م)، الذي أمر بعقد مجمع ثان في القُسطنطينيَّة، فعُقد في سنة ٤٤٩م ووافق على تعليم فلافيانوس وضلال أوطيخا Eutyches . ولَّما لم يرُق للإمبراطور حُكم المجمع، أصدر أمره بعقد مجمع مسكوني في أفسس في السَّنة نفسها، أي في سنة ٤٤٩م، واستدعى البابا ديسقوروس Dioscorus ليتولَّى رئاسة المجمع. والتأم المجمع في كنيسة العذراء مريم في أفسس في أغسطس سنة ٤٤٩م. وكان عدد الأساقفة الحاضرين نحو ١٣٠ أُسقُفاً. ولَّما تبيَّن للبابا ديسقوروس Dioscorus عودة أوطيخا Eutyches إلى جادة الإيمان، وأنه وقَّع بإمضائه على إيمانه، حَكَمَ بتبرئته. فاعترض البعض على ذلك، وحدث سجس في المجمع. وإنَّ وصف القُسطنطينيَّة وروما لهذا المجمع بأنه ''المجمع اللُّصوصي''، يُظهر مدي الغيظ الذي اعتمل في النُّفوس ضدَّ كنيسة الإسكندريَّة.

وفي سنة ٤٥٠م توفى الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصَّغير (٤٠١-٤٥٠م)، فخلفته شقيقته بولشاريا Pulcheria وتزوَّجت بقائد جيشها مركيان Marcian (٤٥٠-٤٥٧م)[٢] ليشاركها في إدارة المملكة. وسعت بولشاريا لدى البابا لاون لعقد مجمع مسكوني فعقد في خليقدونية.

ولقد تسبَّب هذا المجمع في اختلال الأمن، وقيام الفتن، في بلاد كثيرة من الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، لاسيَّما في مصر وفلسطين وسوريا وبلاد ما بين النَّهرين (العراق حاليًّا) وأرمينيا وفارس (إيران حاليًّا). وبسببه استشهد عديد من الأساقفة والكهنة والرُّهبان والمؤمنين، ممَّن رفضوا الخضوع لقرارات وتعليم خلقيدونية[٣].

وجاء الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١م)، وفي بداية عهدة اضطهد أصحاب الطَّبيعة الواحدة بتحريض من بطريرك القُسطنطينيَّة أكاكيوس. فنفى بولس الأفسسي، وبطرس بطريرك أنطاكية، وأرسل يتهدَّد البابا تيموثاوس الإسكندري. ورفض توسُّل الأقباط أن يكون لهم بطريركاً قبطيًّا واحداً، ورسم لهم بطريركاً خلقيدونيًّا على غير رغبتهم. وإذ تيقن أنه لا جدوى من العنف مع أصحاب الطَّبيعة الواحدة، حاول استرضائهم فأصدر ''مرسوم الاتحاد'' وهو المسمَّى ''هينوتيكون – Henotikon''. والهينوتيكون هو رسالة موجَّهة من الإمبراطور زينون إلى ''الأساقفة والإكليروس والرُّهبان المؤمنين في الإسكندريَّة ومصر وليبيا والخمس مُدُن الغربيَّة''. وفي الحقيقة كان أكاكيوس بطريرك القُسطنطينيَّة هو واضع الهينوتيكون محاولة منه للتقرُّب إلى البابا بطرس الثَّالث البطريرك الإسكندري. وقد اعترف الهينوتيكون بقرارات المجامع المسكونيَّة الثَّلاثة الأولى، وحرم كلاً من نسطور وأوطاخي وأتباعهما.

وجاء الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤٠م)[٤] الذي حاول التَّوفيق بين أصحاب الطَّبيعة الواحدة والبيزنطيِّين، فأصدر مرسوم المونوثيليَّة، أي الإرادة الواحدة للسيِّد المسيح، فلم يلق قبولاً، لا من أصحاب الطَّبيعة الواحدة، ولا من أصحاب الطَّبيعتَين. وكان يبغي الإمبراطور من ذلك، استمالة أصحاب الطَّبيعة الواحدة، للاستفادة منهم في مقاومة المسلمين. وانتهج سياسة

٢- أذاق الكنائس الشَّرقيَّة القديمة أهوال الاضطهاد. وكانت زوجته بولشاريا من وراء تصرُّفاته، لضعف شخصيَّته. وقد نفى البابا ديسقوروس الـ ٢٥ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة، وهو أوَّل إمبراطور يعيِّن بطريركاً خلقيدونيًّا على كرسي الإسكندريَّة، فانشقَّ الكرسي الإسكندري منذ ذلك التَّاريخ إلى شطرين، حيث نسج باقي الأباطرة الذين أتوا من بعده على منواله.

٣- الأنبا يؤانس، مذكِّرات في تاريخ الكنيسة القبطيَّة بعد مجمع خلقيدونية، ١٩٧٩م، ص ٢

٤- في عهده بدأ المسلمون أوَّل غاراتهم على المناطق البيزنطيَّة سنة ٦٢٩م. وفي سنة ٦٣٦م انهزم هرقل في معركة اليرموك الحاسمة، فاضطرَّ أن يُسلِّم بالأمر الواقع، وانسحب من سوريا. ثمَّ فتح المسلمون القُدس على يد الخليفة عُمر بن الخطاب، ودانت لهم مصر سنة ٦٤٢م على يد عمرو بن العاص. فتمكَّن العرب في منتصف القرن السَّابع الميلادي من السَّيطرة على سوريا والعراق وجنوب شرق آسيا ومصر. وفي نهاية القرن السَّابع تمَّ فتح شمال إفريقيا بأكمله، واستولوا على جزيرة قبرص، وأنزلوا هزيمة بالأسطول البيزنطي الذي كان يقوده الإمبراطور قنسطان الثَّاني.

الإمبراطور جوستنيان الكبير في مصر، وبالغ فيها، إذ عيَّن بطريركاً ملكيًّا، صار هو حاكم مصر كلّها.

حرب الأيقونات

حرب الأيقونات هو نزاع نشب في كلٍّ أرجاء الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة وامتد إلى الغرب أيضاً ليغطِّي على أحداث القرنَين الثَّامن والتَّاسع للميلاد. فقد أمر الإمبراطور قُسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) في سنة ٧٥٤م بعقد مجمع حضره ٣٣٨ أسقفاً، حرَّم فيه الأيقونات، وقال المجمع في أعماله:

"ما نفع جنون المصوِّر الذي يصوِّر - رغبة في الرِّبح القبيح - من لا يجوز أن تُرسم له صورة؟ إنه يدهن صورة ويدعوها المسيح، وكلمة المسيح تعني الله والإنسان، فتكون الصُّورة بالتَّالي صورة الله والإنسان، أمَّا هو فيخيِّل له عقله الأحمق، أنه في تصويره الجسد المخلوق، قد مثَّل اللاَّهوت الذي لا يمكن أن يمثَّل، وخلط ما لا يجوز خلطه ... وإذاً؛ إذا بقى اللاَّهوت غير منفصل عن النَّفس والجسد في آلامه، فكيف يجسر هؤلاء الحمقى أن يفصلوا الجسد عن اللاَّهوت، ويمثِّلوه على حِدَة، بصورة إنسان عادي؟ ... إلخ.

أمَّا من جهة صورة والدة الإله المجيدة، وصُوَر الأنبياء والرُّسُل والشُّهداء، فلا حاجة إلى صوَرهم ... فقد نبذت المسيحيَّة كلَّ ما له صِلة بالوثنيَّة، فلم تكتف بنبذ الذَّبائح للأوثان، بل نبذت أيضاً عبادة الصُّوَر الوثنيَّة. إنَّ القدِّيسين يحيون إلى الأبد مع الله، ولو ماتوا. فكلُّ من يجسر بعد الآن أن يصنع شيئاً منها، أو يكرِّمه، أو يعلِّقه في الكنيسة أو في منزله الخاص، أو يحفظه بصورة سريَّة، فليُسقط إن كان أُسقُفاً أو قسًّا أو شمَّاساً، وليُحرم إن كان راهباً أو علمانيًّا".

ولكن لَمَّا تولَّت الإمبراطورة إيريني (٧٩٧-٨٠٢م) الوصاية على ابنها الطِّفل قُسطنطين السَّادس (٧٨٠-٧٩٧م)، وتمكَّنت بمساعدة بطريرك القُسطنطينيَّة طاراسيوس من عقد مجمع في نيقية سنة ٧٨٧م ضمَّ ٣٥٠ أُسقُفاً، وحضر فيه ١٧ من محاربي الأيقونات، ولكنَّهم أعلنوا ندامتهم أخيراً، فقبلهم المجمع، وأصدر بيانه في هذا الأمر كالآتي:

"إننا بعد بذل كلِّ ما في الوسع من عناية وتدقيق، نحدِّد أنه لا مانع من أن تُرفع إلى جانب الصَّليب المحيي الأيقونات المكرَّمة المقدَّسة مدهونة بالألوان أو مصنوعة من الفسيفساء، أو من أيَّة مادة أُخرى. ولا فرق في أن تعلَّق في كنائس الله المقدَّسة، أو تُرسم على الأواني، أو الملابس الشَّريفة، أو على الجدران، أو الألواح الخشبيَّة في المنازل أو في الشَّوارع. ونعني بالأيقونات صُور ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، ووالدته الكُليَّة الطَّهارة والفائقة القداسة، وصُوَر الملائكة المكرَّمين، وجميع القدِّيسين. لأنَّ النَّظَر المتواتر إلى هذه الأيقونات يبعث في النَّاظرين إليها الرَّغبة في تذكُّر من رُسموا عليها، ويوقظ فيهم المحبَّة والاحترام لأشخاصهم. على أنه يجب أن يُقدَّم لهذه الأيقونات الإكرام والسُّجود دون العبادة المختصَّة بالجوهر الإلهي وحده. كما أنه يمكن تقديم البَخور وإيقاد المصابيح والأنوار أمام هذه الأيقونات للإكرام كما هو الحال في تقديم سجود التَّكريم للصَّليب المقدَّس والإنجيل الشَّريف وغيره من الأشياء والأواني المقدَّسة. وهذا كلُّه يتَّفق والتَّقليد الذي جرى عليه السَّلف الصَّالح. لأنَّ كلَّ إكرام يُقدَّم للصُّورة إنما يعود إلى شخص المرسوم عليها. وكلُّ سجود لهذه الصُّورة هو سجود إكرامي لمن تمثِّله. هذا هو تعليم الآباء القدِّيسين، وهذه هي تقاليد الكنيسة الجامعة".

إلاَّ أنَّ تحديد المجمع لم يضع حدًّا لهذا النِّزاع. ولكن بموت يوحنَّا بطريرك القُسطنطينيَّة، خمدت نار مكافحة الأيقونات.

ولقد تلخَّص موقف الغرب المسيحي في هذا الأمر برفضه لمجمعي القُسطنطينيَّة لمقاومي الأيقونات، ونيقية الثَّاني (سنة ٧٨٧م) لمدافعي الأيقونات، معلنين أنَّ العبادة تقدَّم لله وحدة، أمَّا القدِّيسون فيكرَّمون فقط. كما أعلنوا أنه يمكن استخدام الأيقونات في الكنائس وإن كانت ليست ضروريَّة، وأنه من الغباء تقديم البَخور لها أو إيقاد شموع أمامها!

وفي المقابل أعلن بطاركة الشَّرق الأرثوذكسي وهُم تحت حُكم دولة إسلاميَّة، مقاومتهم لحركة محاربي الأيقونات، وصرَّحوا بأنَّ كلَّ كنيسة لا رُهبان فيها، ولا أيقونات، تكون منشقَّة عن الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

واستمرَّت هذه الحرب حتى سنة ٨٤٣م، حين خرجت ثيؤدوره زوجة الإمبراطور المتوفى ثاؤفيلس، في مظاهرة شعبيَّة في الأحد الأوَّل من الصَّوم الأربعيني المقدَّس في ١١ آذار/ مارس سنة ٨٤٣م يحف بها كبار رجال الدَّولة وألوف النَّاس، واتَّجهوا

جميعاً إلى كنيسة آيا صوفيا في القُسطنطينيَّة للاشتراك في القُدَّاس الإلهي، ولتقبيل الأيقونات. وعُرف هذا الأحد حتى اليَوم باسم ''أحد الأرثوذكسيَّة''.

مراحل الانشقاق بين الكنيستَين الشَّرقيَّة والغربية

في القرن التَّاسع الميلادي بدأ التَّباعد والنُّفور يزداد رويداً رويداً بين كنيستي روما والقُسطنطينيَّة، ممَّا أدىَّ في النِّهاية إلى انفصال واضح ونهائي بينهما. ولقد عَبَرَ هذا الانفصال في الحقيقة على مراحل كثيرة معقَّدة، حتى أنَّ بدايته الحقيقيَّة لا يمكن تحديدها بدقَّة. وكان آخر اتصال بين العالم المسيحي اليوناني في الشَّرق، ونظيره اللاَّتيني في الغرب قد حدث سنة ١٠٥٤م، ويُسمَّى ''عام الانشقاق العظيم''. ففي أواخر مارس أو أوائل إبريل من نفس هذه السَّنة، وصل الكاردينال هومبرتو – السَّاعد الأيمن لبابا روما، والمشهور بكراهيَّته لليونانيِّين – إلى القُسطنطينيَّة ليتفاوض مع سُلطاتها الكنسيَّة حول بعض الخلافات الكنسيَّة. وفي نهاية المفاوضات اعتبر هومبرتو أنَّ كرسي القُسطنطينيَّة هو أُسقُفيَّة متمرِّدة، غير خاضعة خضوع الطَّاعة لأُسقُفيَّة روما. وفي ١٦ يوليو سنة ١٠٥٤م دخل هومبرتو كنيسة آيا صوفيا بالقُسطنطينيَّة، ووضع قرار الحرم على مذبح الكنيسة.

أمَّا في الغرب المسيحي، فقد تسرَّبت إلى روما في أواسط القرن التَّاسع الميلادي مفاهيم جديدة للسُّلطة الباباويَّة، جعلت منها سُلطة مطلقة تتنافى مع الفكرة التي اكتسبتها القُسطنطينيَّة في استقلالها الإداري.

وفي القرن العاشر الميلادي أخذت كنيسة روما تتخبَّط في الفوضى والاضطراب، تمزِّقها النِّزاعات الحزبيَّة والأطماع الدُّنيويَّة. وسبب هذه الحالة البائسة، هي أنَّ الأشراف والأمراء المسيطرين على روما من الجرمان خصوم البيزنطيِّين، كانوا يُنصِّبون أحباراً لا جدارة لهم ولا تقوى، ينتخبونهم من بين أولادهم أو أعضاء حزبهم، ويدفعونهم إلى تنفيذ سياستهم الخاطئة، فانحطَّت هيبة الباباوات، ودُعي هذا العصر المشئوم باسم ''العصر الحديدي''.

وفي النِّصف الثَّاني من القرن الحادي عشر الميلادي قام الباباوات بإصلاح ديني شمل الأخلاق، وحرَّر الكنيسة ونظَّمها، وأدَّى إلى نهضة مسيحيَّة، فازدهرت المدارس اللاَّهوتيَّة في ظلِّ الكاتدرائيَّات والأديرة. ثمَّ أنشئت الجامعات، وأشهرها جامعة باريس – وقد تمَّ تنظيمها بين سنة ١٢٠٠م وسنة ١٢١٥م – وقد رافق هذه النَّهضة الدِّينيَّة، إطلاع أوسع على الثَّقافة اليونانيَّة بواسطة ترجمة كُتُب الفيلسوف العربي ابن رشد. وفي هذه الفترة كَتَب القدِّيس توما الإكويني الشَّهير موسوعته اللاَّهوتيَّة الشَّاملة سنة ١٢٧٤م، فاستخدم فيها فلسفة أرسطو، متجنِّباً انحرافاتها الدِّينيَّة. وتُلقَّب هذه الحركة الفكريَّة الفلسفيَّة واللاَّهوتيَّة بلقب ''الحركة السِّكولاستيكيَّة'' أو ''الحركة المدرسيَّة''. ولكنَّها ضعفت بعد القرن الثَّالث عشر الميلادي، ونضُب فيها الابتكار والتَّفنُّن، وشكَّ العُلماء في قيمة فلسفة أرسطو، وأخذوا يبحثون عن فلسفة أُخرى.

وهكذا نشطت الحياة الفكريَّة في أوروبَّا، وازدهرت العلوم الفلسفيَّة واللاَّهوتيَّة، بسبب احتكاك الغربيِّين بالعرب في الشَّرق وإسبانيا. إلاَّ أنَّ نجم العرب والبيزنطيِّين بدأ يخبو في الشَّرق بتأثير الغزوات والحروب التي شنَّها عليهم السَّلاجقة[٥] والفرنجة والمغول والعثمانيُّون الذين سيطروا على الشَّرق كلِّه بقسميه العربي والبيزنطي – باستثناء روسيا التي نجت من تسلُّط العثمانيِّين، فأخذت تواصل نموَّها الدَّاخلي، وأصبحت دولة مسيحيَّة قويَّة – بينما أخذت الحضارة الغربيَّة في أوروبَّا تتألَّق وتزدهر بعد قرون طويلة من الظُّلمة والانحطاط، نجمت عن غزوات البرابرة، كما بدأت النُّظُم السِّياسيَّة فيها تتكوَّن وتتبلور.

ومن النَّاحية الدِّينيَّة، فإنَّنا لا نجد في هذا العصر أحداثاً عامة اشتركت فيها المسيحيَّة كلُّها بشطريها الشَّرقي والغربي ما عدا الحملات التي قام بها الغربيُّون في بلاد الشَّرق، وقد توخَّت هذه الحملات الصَّليبيَّة – أو غزوات الفرنجة – جمع الشَّمل عن طريق السَّيطرة وبسط النُّفوذ، فنتج عنها ازدياد عُمق الهوَّة الفاصلة بين المسيحيِّين في كلٍّ من الشَّرق والغَّرب. ولم يتمكَّن

٥– اشتد نفوذ السَّلاجقة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وقويت شوكتهم، فحاربوا الرُّوم وكسروهم في موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١م، واستولوا على قسم كبير من بلاد الأناضول. وكان من جرائها أنْ هجر الأرمن بلادهم وأسَّسوا في كيليكيَّة دولة أرمينيَّة. واستطاعت جيوش الفرنجة، القضاء على السَّلاجقة في آخر القرن الحادي عشر الميلادي.

مجمعا ليون وفلورنسا، من ملء هذه الهوَّة السَّحيقة[٦].

مجمع ليون

في هذه الفترة عارض الشَّعب البيزنطي الأباطرة أن يتفاهموا مع الباباويَّة للحصول على مساعدة الدُّول الغربيَّة ضد الأتراك. فقد حاول الإمبراطور ميخائيل الثَّامن الذي استعاد القُسطنطينيَّة من اللاَّتين، حاول إعادة الوحدة بين الشَّرق والغرب، وكان في أشد الحاجة للحصول على مساعدة الغرب ضد الأتراك، فعُقد في سنة ١٢٧٤م مجمعاً يُدعى ''**مجمع ليون**'' وافق فيه الأرثوذكسيُّون الحاضرون على الاعتراف بسُلطة البابا، وبالعقيدة الرُّومانيَّة المتعلِّقة بانبثاق الرُّوح القُدُس (أي قبول زيادة كلمة ''والابن'' على دستور الإيمان). لكن ظلَّ الاتفاق حبراً على ورق، إذ رفضه الشَّعب بشدَّة من إكليروسه وعلمانييه، ليس في الكنيسة البيزنطيَّة فحسب، بل أيضاً في بلغاريا وباقي البلاد الأرثوذكسيَّة. ودُحض رسميًّا اتفاق ليون من قِبَل خليفة ميخائيل، وحُرم ميخائيل من الجنازة المسيحيَّة لاعتباره جاحداً.

مجمع فلورنسا

ثمَّ جاءت المحاولة الثَّانية، للاتحاد في ''**مجمع فلورنسا**'' الذي عُقد سنة ١٤٣٨-١٤٣٩م. وحضر المجمع الإمبراطور يوحنَّا الثَّامن (١٤٢٥-١٤٤٨م) وهو الذي سعى للاتحاد مع روما، ومعه بطريرك القُسطنطينيَّة، إلى جانب عدد كبير من ممثِّلي الكنيسة البيزنطيَّة، وبعض الكنائس الأرثوذكسيَّة الأُخرى. وحدث أن وقَّع الأرثوذكس الحاضرون على القضايا المتنازع عليها، أي: انبثاق الرُّوح القُدُس، والمطهر، والخُبز والفطير، وزعامة بابا روما، ما عدا مرقس رئيس أساقفة أفسس، الذي تمَّ إعلان قداسته فيما بعد في الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

ولقد تراجع العديد من الأساقفة الموقِّعين على قرارات مجمع فلورنسا فور عودتهم، بعد أن واجهت أخبار توقيع الوثيقة معارضة شعبيَّة، و لم يبق سوى قلَّة ضئيلة من الشَّعب والإكليروس البيزنطيِّين ممَّن قبلوا بقرارات المجمع. كما واجهت الاتفاقيَّة معارضة شديدة في البلاد الأرثوذكسيَّة الأُخرى، خاصة روسيا. ففي سنة ١٤٤٨م عقد الأساقفة الرُّوس مجمعاً، أعلنوا فيه رفضهم لاتفاقيَّة فلورنسا، واعتبروا أنَّ بطريركية القُسطنطينيَّة قد تخلَّت عن الإيمان الأرثوذكسي.

لقد قَبِل الأرثوذكس المجتمعون في مجمع فلورنسا كلَّ معتقدات الكنيسة الكاثوليكيَّة، بغية مساعدة الغرب لهم لتحميهم من الأتراك! وعلى الرَّغم من أنَّ مجمع فلورنسا قد قوبل بالتِّرحاب في أوروبا الغربيَّة، فلم يكن حظّه من التَّطبيق في الشَّرق أقوى من حظ مجمع ليون، و لم يجسر أحد على إعلان هذا الاتحاد في القُسطنطينيَّة قبل سنة ١٤٥٢م، لأنَّ الإمبراطور قُسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩-١٤٥٣م) آخر إمبراطور بيزنطي أراد التَّفاهم مع روما، والقبول بشروطها، فقوبل بمعارضة شعبيَّة شديدة، وقال شعب القُسطنطينيَّة يومئذ إنهم يفضِّلون أن تسود مدينتهم عمامة الأتراك على أن تسودها قبعة اللاَّتين.

وبرغم المعارضة لقرارات المجمع في الشَّرق، ظلَّ الاتفاق بين كُرسي روما وكرسي القُسطنطينيَّة قائماً. وفي صباح يوم الثُّلاثاء ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م أُقيمت صلاة القُدَّاس في كاتدرائيَّة آيا صوفيا، واشترك الأرثوذكس واللاَّتين في الصَّلاة معاً، والتَّناول من الأسرار المقدَّسة، وتناول الإمبراطور من الأسرار المقدَّسة، وخرج مع جنوده للدِّفاع عن المدينة أمام جحافل الأتراك الذين كان عددهم يزيد عن عدد جنود الإمبراطور عشرين ضعفاً. و لم ينته اليَوم، حتى كان السُّلطان محمد الفاتح قد دخل القُسطنطينيَّة. وقُتل الإمبراطور قُسطنطين الحادي عشر.

السُّلطان العثماني محمد الثَّاني وفتح القُسطنطينيَّة

منذ أن تولى السُّلطان العثماني محمد الثَّاني (١٤٥١-١٤٨١م)، أخذ يستعد لفتح القُسطنطينيَّة، فبدأ الحصار العثماني في أوائل نيسان (أبريل) سنة ١٤٥٣م، واستمر سبعة أسابيع، أي حتى ٢٩ مايو[٧]، وبرهنت الحوادث على أن أسوار العاصمة

٦- المطران ميشيل يتيم، والأرشمندريت إغناطيوس ديك، مرجع سابق، ص ٢٠٩

٧- لم يكن هذا هو أوَّل حصار يجري للمدينة، ففي خلال القرون الثالث عشر والرَّابع عشر والخامس عشر، تعرَّضت القُسطنطينيَّة لهجمات

المنيعة لم تكن شيئاً أمام المدفعيَّة العثمانيَّة الثَّقيلة، حيث كانت جيوش الأتراك تفوق جيش القُسطنطينيَّة عشرين مرَّة.

وبعد حصار دام خمسين يوماً سقطت القُسطنطينيَّة، واستباح العثمانيون المدينة لمدَّة ثلاثة أيام، ودخل السُّلطان محمد الثَّاني إلى كنيسة آيا صوفيا راكباً حصانه، عابراً به على جثث الموتى التي فرشت أرض الكنيسة، فسقطت روما الجديدة، وتسلَّمت موسكو التُّراث.

وبرغم ذلك، يشير المؤرِّخ الرُّوسي يوسبنسكي Uspensky, Gleb Ivanovich (١٨٤٣-١٩٠٢م) إلى أنَّ معاملة الأتراك للسُّكان في القُسطنطينيَّة، كانت أرحم من معاملة الصَّليبيِّين لهم أثناء احتلالها سنة ١٢٠٤م.

لقد قُدِّر للمدينة التي شادها قُسطنطين الأوَّل أن تطوي آخر صفحاتها في عهد سميِّه قُسطنطين الحادي عشر، وحقَّق العثمانيُّون ما عجز عن تحقيقه الفُرس. ولقد كان حدث سقوط القُسطنطينيَّة، من الحوادث الخطيرة في التَّاريخ. ولكن الحقيقة التي لا تتبدَّل، هي أنَّ العالم الغربي وعلى رأسه روما، كانت تريد للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة أن تتلاشى. وبالفعل انتهت هذه الإمبراطوريَّة التي دامت نحو عشرة قرون. ويُعتبر سقوطها هو نهاية العُصور الوُسطى، وبدء العصر الحديث مروراً بعصر النَّهضة[٨]. كما أن نهاية الإمبراطوريَّة الرُّومانية في الغرب سنة ٤٧٦م هو نهاية العصور القديمة.

تلك كانت نهاية الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، ولكنَّها لم تكن نهاية كنيسة القُسطنطينيَّة ولن تكون، لأنَّ الكنيسة لا تموت. ولقد اعتبرت كنيسة روسيا فيما بعد، أنَّ سقوط القُسطنطينيَّة في أيدي الأتراك كان عقوبة الله لها لتخلِّيها عن إيمانها.

انشقاق الكنيسة الغربيَّة

لقد كانت الفترة من أوائل القرن الرَّابع عشر إلى أوائل القرن السَّادس عشر للميلاد (١٣٠٣-١٥١٧م) عهد التَّفكُّك الدِّيني والانحلال الأخلاقي، وعهد انحطاط السُّلطة الباباويَّة، فقد عاش الباباوات حياة التَّرف، وتأثَّروا بعقليَّة النَّهضة الإيطاليَّة، كما كانت فترة الحروب الصَّليبيَّة الدامية، والانشقاقات الدِّينيَّة، وفيها بُنيت الكنائس الفخمة.

نفر العلماء والمفكِّرون من الفلسفة المدرسيَّة الكلاسيكيَّة، ومالوا إلى الفلسفة الوثنيَّة القديمة، واعتنقوا أقوالها وآراءها، فتغلغلت إليهم روح الشَّك والإلحاد. وأهمل رجال الدِّين واجباتهم الرُّوحيَّة، وتناسى الباباوات أنَّ رعاية النُّفوس، هي أهم من المحافظة على الممتلكات الماديَّة. فحدثت ثورة الإصلاح، وانقسام الكنيسة الغربيَّة.

فمثلما حدث أنْ انقسمت الكنيسة في الشَّرق إلى ثلاث كنائس هي: الكنيسة الآشوريَّة، والكنيسة اللاَّخلقيدونيَّة، والكنيسة الخلقيدونيَّة، هكذا انقسمت أيضاً الكنيسة في الغرب إلى ثلاث كنائس هي: الكنيسة الكاثوليكيَّة، والكنيسة البروتستنتيَّة، والكنيسة الأنجليكانيَّة[٩].

لقد كانت البداية الأولى في أوائل القرن السَّادس عشر الميلادي، عندما ظهرت في إيطاليا حركة عُرفت باسم ''حركة الأدب الإنساني''، وكان هدفها إثراء المسيحيَّة بأجمل ما في الأدب القديم من روعة وجمال. فواصَل أتباع هذه الحركة نشر أهم مؤلَّفات الأدباء الإغريق والرُّومان، يساعدهم في ذلك اختراع الطِّباعة التي عرفتها أوروبا لأوَّل مرَّة سنة ١٤٤٠م.

وامتدَّت حركة الأدب الإنساني من إيطاليا لتنتشر في كلٍّ من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وهولندا، حيث لمع

متكرِّرة من الشَّرق والغرب. وفي سنة ١٤٢٢م، حاصر السُّلطان العثماني مراد الثَّاني القُسطنطينيَّة، ولكن المدينة صمدت وفشل الحصار.

٨- يُطلق تعبير ''عصر النَّهضة'' على فترة الانتقال من العُصور الوُسطى إلى العصر الحديث، ويؤرَّخ لبداية عصر النَّهضة بسقوط القُسطنطينيَّة سنة ١٤٥٣م، حيث نزح العُلماء إلى إيطاليا، ومعهم تُراث اليونان والرُّومان، ومن إيطاليا انتشرت النَّهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة (هولندا) وإنجلترا، وإلى سائر أنحاء أوروبا. ولقد بلغت البندقيَّة ذروة عظمتها الثَّقافيَّة في أواخر القرن السَّادس عشر الميلادي. وكان أعظم شخصيَّات عصر النَّهضة: ليوناردو دافنتشي، مايكل أنجلو، مكيافيللي. واتسم عصر النَّهضة بظهور طائفة كبيرة من الرحَّالة والمستكشفين والملاَّحين، الذين اكتشفوا أراضي وشعوب كثيرة، ومن بينهم هنري الملاَّح، وكريستوفر كولومبس، وفاسكو دي جاما، وغيرهم.

٩- منقولة بتصرُّف عن مجلَّة المسرَّة، تموز - آب، سنة ١٩٩١م، وكتاب ''دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة'' بقلم الأب جان كومبي، دار المشرق، بيروت، سنة ١٩٩٤م، وهو مترجم عن كتاب صدر بالفرنسيَّة بعنوان:

Jean Comby, *Pour Lire l'histoire de l'église*, edition du Cerf, Paris, 1986.

الأديب إيراسم[١٠] Erasm (١٤٦٥-١٥٣٦م) الذي وُلد في روتردام بهولندا، ودخل في شبابه السِّلك الرَّهباني، ولكنَّه غادر الدَّير، وأخذ يتجوَّل في أوروبا، وكثيراً ما كان يتهكَّم على تجاوزات رجال الإكليروس آنئذ. ولكونه كان متضلِّعاً في العلوم والآداب، فقد أخذ على عاتقه نشر النُّصوص العلميَّة الدَّقيقة لكتاب العهد الجديد، ومؤلَّفات الأدباء من الحضارة اليونانيَّة – الرُّومانيَّة القديمة، وكذلك كتابات آباء الكنيسة الغربيَّة مثل القدِّيسَين إيرونيموس (وهو القدِّيس جيروم) (٣٤٢-٤٢٠م) والقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، وغيرهم ... إلخ.

لقد كان أصحاب ''الأدب الإنساني'' في غالبيَّتهم من المؤمنين الأتقياء المتمسِّكين بإيمان الكنيسة الكاثوليكيَّة، خاصة في إنجلترا، وألمانيا، وفرنسا، لكنَّهم أخذوا يشعرون ببعض الضِّيق في حضن الكنيسة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، إذ كانوا يتوقون إلى ديانة مسيحيَّة أكثر روحانيَّة وتعمُّقاً، تعفُّ عن مظاهر الأبَّهة في الاحتفالات الدِّينيَّة، ويرغبون مُخلصين في العودة إلى جذور المسيحيَّة في قرونها الأولى. ورغبة منهم في تعريف النَّاس بالكتاب المقدَّس، وتحبيبه إليهم، راحوا ينشرونه ترجمة وشرحاً وتعليقاً. فقادتهم أبحاثهم أحياناً إلى استنتاجات رهيبة، وتبيَّن لهم أنَّ الكنيسة في تلك الأيام، كانت تُعلِّم بعض تعاليم بمفهوم يختلف تماماً عن تعاليم الكتاب المقدَّس، وتعاليم الآباء، فأشاروا إلى قُرَّائهم ونصحوا تلاميذهم باتِّباع تعاليمهم هُم، فأسهموا بذلك فيما سُمِّي بـ ''الإصلاح'' وساندوه.

في ذلك الوقت ارتفعت الأصوات تطالب بعقد مجمع إصلاحي. وهكذا افتتح البابا يوليوس الثَّاني سنة ١٥١٢م المجمع اللاَّتراني الخامس الذي اختتم أعماله سنة ١٥١٧م بعد أن أعدَّ برنامجاً إصلاحيًّا، لكن لم يجد البرنامج سبيله إلى التَّنفيذ.

كان البعض من أصحاب ''الأدب الإنساني'' يرى أنَّ لاهوتيي ذاك العصر من الكاثوليك، لم يستطيعوا أن يعطوا جواباً يهدئ روع الإنسان الباحث عن الخلاص. كما أنَّ تقاعس الباباوات وانشغالهم عن الرُّوحيَّات بالدُّنيويَّات، كان هو السَّبب الذي دفع لوثر وكالفِن إلى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكيَّة الرُّومانيَّة، وبالتَّالي عن بابا روما.

مارتن لوثر Martin Luther

وُلد مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) في إيسليبن Eisleben بألمانيا من عائلة فقيرة، فعاش طفولة خشنة، وانخرط في سلك الرَّهبنة الأُغسطينيَّة سنة ١٥٠٥م، ونال شهادة الدُّكتوراه في اللاَّهوت، ثم عُيِّن مدرِّساً لتعليم الكتاب المقدَّس في جامعة فيتينبيرج Wittenberg الكاثوليكيَّة في سنة ١٥١٣م، حيث بدأ في سنة ١٥١٥م بتدريس رسائل القدِّيس بولس الرَّسول. وإذ كان يراوده القلق والرِّيبة في أن يظل خاطئاً بالرَّغم من كلِّ جهاداته وتقشُّفاته وصلواته، وجد في دراسته لرسالة القدِّيس بولس الرَّسول إلى أهل رومية، سبيلاً آخر للخلاص – بحسب فكره – مغايراً لما تلقَّنه هو من معلِّميه، ولاسيَّما من تعليم القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م).

فاللاَّهوتيُّون في العصر الوسيط، كانوا يُعلِّمون أنَّ الإنسان يُسهم في أمر خلاصه بأعماله الصَّالحة التي تؤهِّله قدر الإمكان للخلاص. أمَّا لوثر، فكان على العكس، يعتقد ويعلِّم طُلاَّبه، أنَّ الإنسان حتماً خاطئ بوصمة الخطيئة الأصليَّة ولذا فلا يفعل سوى الشَّر، ولا طاقة له البتَّة في خلاص نفسه. وتوغُّل الله في حياة المسيحي، يفيض في قلبه شعوراً مفعماً بالفرح والأمان والشُّكر، وهو ما يسمِّيه لوثر ''الإيمان''. من هنا، ومن هذا التَّعليم، انطلق الشِّعار الذي تمسَّك به لوثر، ومن بعده كلُّ الكنيسة البروتستنتيَّة ''الخلاص بالإيمان وحده، دون أيَّة علاقة بالأعمال الصَّالحة''.

لم يكن لوثر قد انفصل عن الكنيسة الكاثوليكيَّة حتى ذلك الوقت. ولكن بعد سنوات قلائل، وفي سنة ١٥١٧م، أصدر

١٠- هو أمير المتضلِّعين في الثَّقافة القديمة، وُلد من أب كاهن، وكان هو أيضاً راهباً وكاهناً، غادر ديره وطاف في أنحاء أوروبا سعياً وراء الأدباء وبحثاً عن المخطوطات، فعاش في فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وألمانيا، وتوفي في بال Bâle . ومن أشهر مؤلَّفاته ''مذبح الجنون'' ألَّفه سنة ١٥١١م، وفيه يهجو جميع فئات المجتمع، وينتقد جميع الأوساط الاجتماعيَّة نقداً لاذعاً. ومن أشهر مؤلَّفاته النَّقديَّة، العهد الجديد باليونانيَّة سنة ١٥١٦م، وألَّف أيضاً مقالات في شتَّى المواضيع، كالتَّربية المسيحيَّة، والزَّواج، والحرب والسِّلم، والأزمة اللُّوثريَّة ... إلخ، وأراد بمؤلَّفاته أن يجدِّد علم اللاَّهوت بالعودة إلى الجذور، أي إلى نصِّ الكتاب المقدَّس الأصلي، وإلى مؤلَّفات آباء الكنيسة.

لوثر نشرة من ٩٥ بنداً أو تصريحاً، يبرهن فيها أنَّ ''الغُفرانات''[١١] تشكِّل خطراً على إيمان المسيحيِّين وتقواهم. وألصق النَّشرة على باب كنيسة قصر فيتينبيرج Wittenberg وهو في ذلك لم يكن يفكِّر في الانشقاق عن الكنيسة، إنَّما كان يطرح أمام اللاَّهوتيِّين نقاشاً للبحث يوضِّح معنى هذه الغُفرانات ويبيِّن مدى جدِّيَّتها. لأنَّها تُناقض تماماً تعليمه عن أنَّ الإنسان يخلُص بالإيمان وليس بالأعمال. وقد لاقت هذه البنود الـ ٩٥ قبولاً شعبيًّا كبيراً في أنحاء ألمانيا وأوروبا.

وعندما دار النِّقاش واحتدم بينه وبين مناوئيه، واضطر لوثر إلى التَّهكُّم عليهم بكتابات لاذعة، أخذ يتنكَّر علناً لبعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة الأساسيَّة، وسجَّل فكره هذا، في ثلاثة مؤلَّفات كُبرى، نشرها سنة ١٥٢٠م هي: ''نداء إلى الأشراف المسيحيِّين في الأُمَّة الألمانيَّة''، و''أسرار الكنيسة في بابل''، و''حُريَّة المسيحي''. ودعا فيها إلى عقد مجمع، مع التَّأكيد على أنَّ المجمع غير معصوم من الخطأ، وكان قد صرَّح سنة ١٥١٩م بقوله: ''أكاد لا أشُكُّ في أنَّ البابا هو المسيح الدَّجَّال''. فحرمه البابا لاون العاشر سنة ١٥٢٠م، فازدرى لوثر بالحرم، وأخذه وألقاه في النَّار أمام حشد من مناصريه.

وفي السَّنة التَّالية، استدعى شارلكان (شارل الخامس) (١٥٠٠-١٥٥٨م) ملك إسبانيا وصقليَّة وإمبراطور ألمانيا، لوثر، للمثول أمام المجلس الأعلى للإمبراطوريَّة، فرفض الحضور. فاضطرَّ المجلس إلى التَّشهير به، واعتباره خارجاً عن القانون، سنة ١٥٢١م. فدعاه حاكم مقاطعة السَّاكس، وأخفاه في قصر لحمياته. وفي تلك العُزلة، قام لوثر بترجمة كتاب العهد الجديد إلى الألمانيَّة.

ولكنَّه سُرعان ما رضخ ومَثَلَ أمام المجلس المذكور، فحكم عليه بالحرم من شركة الكنيسة. وسُرعان ما انتشرت آراء لوثر، ليس فقط في ألمانيا، بل أيضاً في البلاد الإسكندنافيَّة، وسويسرا، وفرنسا، ونَجَمَ عن ذلك اضطرابات ليست بقليلة.

وتتلخَّص تعاليم لوثر، في قصْر السُّلطة على الكتاب المقدَّس وحده، باعتباره المصدر الوحيد للإيمان، ممَّا حمله على نبذ التَّقليد والسُّلطة البابويَّة، ورذل إكرام السيِّدة العذراء والقدِّيسين، ورفض تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة عن المطهر، والذَّبيحة الإلهيَّة، وضرورة البتوليَّة للكهنة، والنُّذور الرَّهبانيَّة، ومن الأسرار السَّبعة لم يستبق سوى سريِّ المعموديَّة والتَّناول.

وتمنَّى لوثر ألاَّ تتدخَّل الدَّولة في الشُّؤون الدِّينيَّة، ولكنَّه لم يستطع في الحقيقة تنظيم كنيسته، إلاَّ بإخضاعها إخضاعاً صارماً للسُّلطة المدنيَّة الحاكمة التي اعتنقت اللُّوثريَّة.

وبالرَّغم من سطوة الإمبراطور شارلكان وجبروته، إلاَّ أنَّه لم يستطع سحق اللُّوثريَّة، أو إخضاعها للكنيسة الكاثوليكيَّة، فأعلن عن معاهدة سلام سنة ١٥٥٥م، سُمح بموجبها لأمراء الإمبراطوريَّة، ومجالس بلديَّات مُدُنها الحرَّة، أن يعتنقوا ما يشاءون من اللُّوثريَّة أو الكاثوليكيَّة، أمَّا الشَّعب، فكان مُرغماً أن يكون على دين حُكَّامه.

وهكذا، وفي أقل من رُبع قرن بعد ظهور حركة التَّصالح مع لوثر، اندثرت الوحدة الوحيدة الباقية في ألمانيا في القرن السَّادس عشر الميلادي، ألاَّ وهي الوحدة الدِّينيَّة، فعرف العالم ألمانيَّتين، الواحدة كاثوليكيَّة، والأُخرى بروتستنتيَّة.

كانت تعاليم الإصلاح اللُّوثري قد غزت فرنسا منذ سنة ١٥٢٠م، فرشقها السُّوربون - أعرق جامعات فرنسا - بالحرم، وأُلقي ببعض أتباع لوثر - وهُم أحياء - إلى النِّيران، وذلك في العاصمة باريس سنة ١٥٢٣م، غير أنَّ مارجريت شقيقة الملك فرنسوا الأوَّل (١٤٩٤-١٥٤٧م) كانت منحازة إلى اللُّوثريَّة، فمنعت الملك من أن يفتك بأتباع الإصلاح، بل ودفعته إلى دعم الأمراء الألمان البروتستنت ضد شارلكان.

وفي سنة ١٥٣٤م أُلصقت في باريس منشورات، تُلحق الإهانة بالبابا، وبسرِّ الذَّبيحة الإلهيَّة، وأُلصق بعضها على باب غُرفة الملك نفسه. فطارد فرنسوا الأوَّل الهراطقة، وكان كالفِن Calven من بين أولئك الذين غادروا باريس، خوفاً

١١- ''صكوك الغفران'' هي وصمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيَّة في الماضي، وكانت تهدف إلى إعفاء من يشتريها بالمال، من عقوبات على الأرض أو عقوبات في المطهر في السَّماء، نتيجة خطاياه، وذلك بعد أن ينال الحل في سرِّ الاعتراف، وذلك بتتميمه بعض الصَّلوات أو الأعمال المفروضة. فالبابا لاون العاشر مثلاً، منح غفراناً لكلِّ مؤمن معترف، يتبرَّع بصدقة ما، لإتمام بناء كاتدرائيَّة القدِّيس بطرس، التي أُعيد بناؤها لكي تكون على شكلها الحالي، ابتداءً من سنة ١٥٠٦م!

من الاضطهاد.

يوحنَّا كالفِن Jean Calven

يوحنَّا كالفِن (١٥٠٩-١٥٦٤م) هو مُصلح فرنسي، وُلد في مدينة نويون Noyon بفرنسا. درس الأدب والحقوق، واعتنق مبادئ الإصلاح اللُّوثري، ولكنَّه كان علمانيًّا، ولم يكن من رجال الإكليروس، شأن معظم رجال الإصلاح الأوَّلين. ومن جهة أُخرى كان فرنسيًّا، في حين أنَّهم كانوا من الألمان. طاف أنحاء فرنسا، وأصبح لاهوتيًّا في خدمة المنشقِّين الفرنسيِّين. لجأ إلى بال Bâle حيث ألَّف في سنة ١٥٣٦م كتاباً في اللاَّهوت باللاَّتينيَّة، دعاه ''إنشاء الدِّين المسيحي''، ليوفِّر للمسيحيِّين الفرنسيِّين تعليماً قويماً ودفاعاً عن ذكرى الشُّهداء. واستوحى جزءًا من آرائه وتعاليمه من لوثر.

انتقل كالفِن إلى جنيف بسويسرا سنة ١٥٣٦م بدعوة من صديقه فاريل الذي كان قد ردَّ سُكَّان المدينة من الكاثوليكيَّة إلى الإصلاح، وكان زفنجلي[١٢] Zwingli قد مات منذ ما يقرب من خمس سنوات. فهيَّجا الرأي العام في سويسرا، وكذا السُّلطة الحاكمة، فأُمرا بمغادرة جنيف فوراً، وكان ذلك سنة ١٥٣٨م، فلجأ كالفِن إلى ستراسبورج، ومكث بها مدَّة ثلاث سنوات، إلى أن استدعاه سُكَّان جنيف ثانية سنة ١٥٤١م، ومكث بها حتى يوم مماته. وفي هذه السَّنة نفسها ترجم الكتاب المقدَّس إلى الفرنسيَّة، وطُبع عدَّة مرَّات. وكان تنظيمه لمدينة جنيف، نموذجاً يُحتذى، انتشر فيما بعد انتشاراً واسعاً في أوروبا والعالم كلِّه.

وفي سنة ١٥٦٤م أنشأ أحكاماً ترتكز على مبادئ الإنجيل، ووضع كتاب ''كاتيشزم'' يثبِّت به مبادئ إيمان أتباعه، وكتاب ''الأنظمة الكنسيَّة''، الذي يعلِّم كيف يجب على المسيحي الصَّالح أن يعيش. وقد تعرَّض مراراً للطَّرد والقتل، من قِبَل حُكَّام المدينة. وفي تعصُّبه، أمر بنفسه، أن يُحكم بالإعدام على أعدائه السِّياسيِّين أو مناوئيه الدِّينيِّين!!

وهكذا تخلَّى كالفِن عن بعض تعاليم لوثر، وأنشأ مبدأً لاهوتيًّا جديداً، فقامت الكالفِنيَّة إلى جانب اللُّوثريَّة، كمنهج آخر للبروتستنتيَّة، وتسمَّتْ الكالفِنيَّة بالدِّيانة المُصلَحة.

وكانت اللُّوثريَّة قد اعتراها الضَّعف بسبب تسلُّط الأمراء الألمان على مقدَّراتها، ولتفكُّكها السَّريع إلى شيع. فحلَّت الكالفِنيَّة محل اللُّوثريَّة. وفي سنة ١٥٥٩م كان كالفِن قد أسَّس في جنيف أكاديميَّة التحق بكُليِّتها وجامعتها مئات الطُّلاب الذين تلقَّنوا مبادئه اللاَّهوتيَّة، ونشروا الكالفِنيَّة في هولندا، وغربي ألمانيا، وسويسرا، وبولندا، والمجر، وإسكتلندا، وبخاصة فرنسا. أمَّا السِّويد والدَّانمرك والنِّرويج، فقد اختارت قبلاً المذهب اللُّوثري. فماذا حدث في إنجلترا؟

نشأة الكنيسة الأنجليكانيَّة

كان الملك هنري الثَّامن (١٤٩١-١٥٤٧م) ملك إنجلترا، كاثوليكيًّا، نزيهاً، حيُّ الضَّمير، وصديقاً لإيراسم Erasm . فأخذ على عاتقه إصلاح سوء التَّصرفات في كنيسة إنجلترا. وفي أمانته لكنيسته الكاثوليكيَّة، وغيرته على الدِّيانة، ألَّف كتاباً يدحض فيه تعاليم لوثر، وسُمِّي لذلك باسم ''المُدافع عن الإيمان''، أي الإيمان الكاثوليكي طبعاً.

وحوالي سنة ١٥٣٠م نشب خلاف حاد بينه وبين البابا كليمندس السَّابع (١٥٢٣-١٥٣٤م)، لأنَّ هذا الأخير رفض إعلان بُطلان زواجه من زوجته كاترين الأراغونيَّة الإسبانيَّة الأصل، وهي عمَّة شارلكان، والتي لم تُنجب له سوى بنت. فما

١٢- زفنجلي: هو الرَّجل الثَّالث في حركة الإصلاح (١٤٨٤-١٥٣١م) بعد لوثر، وكلفن، وكان متضلِّعاً في الآداب القديمة وتلميذاً لإيراسم الروتردامي Erasme de Rotterdam (١٤٦٩-١٥٣٦م)، وكان كاهن رعيَّة في سويسرا. ورافق رعاياه المتطوِّعين في خدمة البابا في الحروب التي خاضتها إيطاليا، ولمَّا أصبح كاهن رعيَّة زيورخ Zurich وجَّه المدينة إلى صفوف الإصلاح، فعلمن الأديرة، وأدخل الألمانيَّة إلى اللِّيتورجيَّة، وحطَّم التَّماثيل، ولم يتردَّد في اللُّجوء إلى الإكراه لإرغام المعارضين. واختلف عن لوثر في موضوع الإفخارستيَّا، حيث لم ير فيها سوى حضور رمزي للمسيح. وقال: إنَّ الأسرار هي مجرَّد تذكارات ووعود. وأضاف بأنَّ المعموديَّة ليس لها فعاليَّة في حدِّ ذاتها، بل تعني أنَّ الله اختار فحسب. لكن بعض الكونتات السِّويسريَّة عارضت انتشار الإصلاح، فكانت الحرب الأهليَّة، ومات زفنجلي في ساحة القتال، وهو في صُحبة جيش زيورخ، وامتد تأثير زفنجلي إلى كلِّ أنحاء سويسرا.

كان من الملك هنري، إلاَّ أن أجبر رئيس أساقفة كانتربري على فسخ زواجه، وتزوَّج مرَّة ثانية في سنة ١٥٣٣م من آن بولين، إحدى وصيفات الملكة كاترين. فأعلن البابا كليمندس، أنَّ هذا الزَّواج باطل، وحَرَمَ الملك هنري. فردَّ الملك على الحرْم، بالخروج على سُلطة الكُرسي الرَّسولي، هو وجميع شعبه. وفي سنة ١٥٣٤م حصل من البرلمان على لقب ''الرَّئيس الأعلى لكنيسة إنجلترا''.

ثمَّ حلَّ كلَّ الرَّهبانيَّات المتواجدة على أرض مملكته، وصادر جزءًا من أملاكها، وضمَّه إلى أملاك العرش، وباع الباقي. وكانت أملاك الرَّهبانيَّات تغطي رُبع مملكته إنجلترا. فأثرَت أُسَر بريطانيَّة عديدة من استيلائها على أرزاق الرُّهبان أو شرائها.

ولم يعترض الشَّعب على تلك الإجراءات، لأنَّ الرأي العام منذ زمن بعيد قد أخذ ينفُر من تصرُّفات الكُرسي الرَّسولي، ويعادي الرُّهبان. ومع هذا كلِّه، وبالرَّغم من عدائه لسُلطة البابا، ونُكران حقِّه على المملكة، كان الملك هنري الثَّامن يجاهر بإيمانه الكاثوليكي، وفي ذات الوقت يأمر بإعدام كلِّ من ينكرون عليه رئاسة كنيسة إنجلترا – كما فعل بمستشاره الخاص توماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥م) – وتعذيب من يعتنقون اللُّوثريَّة.

وبعد موت هنري الثَّامن سنة ١٥٤٧م، توالى على العرش أولاده الثَّلاثة، الذين فرضوا على المملكة إيمانهم ومعتقدهم الخاص. فإدوارد السَّادس (١٥٣٧-١٥٥٣م) الذي اعتلى العرش في سن العاشرة، ولم يعمِّر طويلاً، أفسح المجال للبروتستنتيَّة تحت ضغط أوصيائه، فعمَّت الأفكار الكالفِنيَّة أرجاء مملكته، وتغلغلت في كتاب الصَّلوات سنة ١٥٤٩م.

ثمَّ خلفته الملكة ماري الأولى تودور (١٥١٦-١٥٥٨م) ابنة هنري الثَّامن، من زوجته الأولى كاترين الأراغونيَّة، فأعادت الكاثوليكيَّة إلى المملكة، واضطهدت البروتستنت بشراسة، حيث أَعدمت أكثر من مائتي شخص، حتى لُقبِّت بماري السَّفَّاحة.

وخلفتها سنة ١٥٥٨م الملكة إليزابيث الأولي (١٥٣٣-١٦٠٣م) ابنة الزَّوجة الثَّانية آن بولين. فعرضت على شعبها ديانة هي أشبه بخليط من الكاثوليكيَّة والبروتستنتيَّة، وعُرفت باسم ''الأنجليكانيَّة''. واتَّخذت لقب ''حاكمة المملكة المطلقة في الأمور الرُّوحيَّة والزَّمنيَّة''.

مبادئ الأنجليكانيَّة

في سنة ١٥٥٩م طلبت الملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣م) إلى البرلمان الإنجليزي أن يُقر مبدأ ''الرِّئاسة العُليا''، وهو المبدأ الذي يخوِّل للملك السُّلطة الدِّينيَّة العُليا في إنجلترا، ويحظرها على أيِّ إنسان سواه كائناً من كان. ثمَّ حصلت من البرلمان أيضاً على مبدأ ''التَّشابُه'' الذي فرض على الإكليروس كلِّه ''كتاب صلوات'' رسميًّا واحداً، وأُرغم الشَّعب – تحت طائلة العقاب – على حضور الحفلات الدِّينيَّة الأنجليكانيَّة. وأخيراً فرضت سنة ١٥٦٣م على الجميع الاعتراف بمبادئ الإيمان التِّسعة والثَّلاثين التي ثبَّتت المعتقدات الإلزاميَّة الأساسيَّة.

إنَّ الاعتراف بهذا الإيمان كان يلغي ليس فقط سُلطة البابا، بل أيضاً التَّقليد والإكرام الواجب للقدِّيسين وذخائرهم، ويرفض الاعتراف بالمطهر، وكذلك عزوبيَّة الكهنة، ولا يُبقي من الأسرار السَّبعة سوى على سرَّي المعموديَّة والإفخارستيَّا.

والأنجليكانيَّة لا تعتبر نفسها لوثريَّة، أو كالفنيَّة، ولم تنخرط قط في سلك الكنائس البروتستنتيَّة. وعلى كلٍّ، فالملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣م) قد احتفظت من الكثلكة بأُبَّهة الاحتفالات اللِّيتورجيَّة، وعلى الصَّلوات مترجمة من اللاَّتينيَّة إلى الإنجليزيَّة، وعلى الزِّي الكهنوتي، وأخيراً على رُتب الإكليروس من كهنة وأساقفة ورؤساء أساقفة.

وبما أنَّ الأنجليكانيَّة ظهرت وكأنَّها خليطٌ من الكاثوليكيَّة والكالفِنيَّة، فقد رفضها كلا الطَّرفين، فتعرَّضا للاضطهاد، واتُّهم أتباعهما بالخيانة العُظمى.

فالكاثوليك كانوا يؤكِّدون أنَّ إليزابيث لم تكن الملكة الشَّرعيَّة، لأنَّها ابنة زنا بعد أن أعلن البابا كليمندس السَّابع أنَّ زواج والديها باطلاً، فنظَّموا ضدَّها عدَّة مؤامرات سُحقت بشراسة، آملين أن ينصِّبوا ملكة مكانها، وهي نسيبتها ماري ستيوارت (١٥٤٢-١٥٨٧م) ملكة إسكتلندا التي اعتلت العرش تحت الوصاية منذ اليَوم السَّابع من عمرها. ولكنَّ الملكة إليزابيث الأولى تمكَّنت في النِّهاية من قطع رأسها سنة ١٥٨٧م.

وانتقاماً من الإنجليز الكاثوليك، أمرت الملكة فحُظر عليهم إقامة شعائرهم الدِّينيَّة، بل واضطُّروا، تحت طائلة الغرامة والسِّجن والقتل، إلى أن يحضروا الاحتفالات الأنجليكانيَّة، وفي الوقت نفسه، حُرموا من حق مباشرة الوظائف الحرَّة، وأُقصوا عن الالتحاق بالقضاء والجيش والطِّب.

ومن جهة أُخرى، استاء الكالفِنيُّون في إنجلترا من أنَّ الأنجليكانيَّة حافظت على ما أسموه ''بالعبادة الباباويَّة''، وكانوا يودُّون أن يطهِّروا المملكة منها. ولذا فقد لُقِّبوا ''بالمتزمِّتين''، وأنكروا أيضاً مبدأ ''الرِّئاسة العُليا'' الذي يُخضع الكنيسة لسُلطة الملك الحاكم، فتعرَّضوا هُم أيضاً للاضطهاد، ولكن لم يمنعهم ذلك من كسب أتباع عديدين، لاسيَّما من بين طبقات النُّبلاء في الرِّيف الإنجليزي، وكان منهم أعضاء في مجلس العموم، ممَّا خلق بين المتزمِّتين والأنجليكان صراعاً تأجَّج سعيره داخل مجلس العموم نفسه، فوقف المتزمِّتون في وجه الملك ذي السُّلطة الحاكمة الأنجليكانيَّة المذهب، ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ إنجلترا في القرن السَّابع عشر للميلاد.

ولقد صدر قانون في سنة ١٧٠٠م يُسمَّى ''قانون التَّسوية'' Act of Settelment وينصُّ على أنَّ العرش يرثه الابن الأكبر لصاحب العرش، أو الابنة الكُبرى إذا لم يكن لصاحب العرش ابنٌ مولودٌ قبل وفاته، أو في بطن أُمِّه في الوقت الذي تُوفى فيه صاحب العرش(١٣). ويشترط القانون أنَّ من يتولَّى العرش يجب أن يكون مسيحيًّا من أتباع كنيسة إنجلترا Church of England وذلك لأنَّه يُعتبر عند تولِّيه العرش رئيس هذه الكنيسة. واللَّقب الأصلي لصاحب العرش هو ''(فلان) بنعمة الله رئيس المملكة المتَّحدة المؤلَّفة من بريطانيا العُظمى وإيرلندا الشَّماليَّة، ورئيس الممتلكات والأراضي ورئيس الكومنولث، وحامي الإيمان''.

وحتى اليَوم؛ لازالت مشكلة الأولويَّة الرُّومانيَّة تبقى دوماً هي المشكلة الأصعب حلاً في مناقشات لاهوتيي الطَّرفين ولقاءاتهم. فالكاثوليك إجمالاً – ما عدا الفرنسيِّين منهم – اعتبروا أنَّ الكنيسة الأنجليكانيَّة كنيسة من كنائس الحركة الإصلاحيَّة، فتعامل معها كرسي روما ككنيسة خارجة عن الكثلكة. ولكن المجمع الفاتيكاني الثَّاني خصَّ الكنيسة الأنجليكانيَّة بتقديره، إذ قال في المرسوم المجمعي في الحركة المسكونيَّة: ''... والانشقاقات الأُخرى وقعت من بُعد، بعد أكثر من أربعة قرون في الغرب، نتيجة أحداث ألفوا تسميتها بالإصلاح، فنتج عن ذلك أنَّ عدَّة تكتُّلات قوميَّة أو مذهبيَّة قد انفصلت عن الكُرسي الرُّوماني، وبين من يحتفظ منها جزئيًّا بالتَّقاليد الكاثوليكيَّة، تحتل الشَّركة الأنجليكانيَّة المحل الممتاز''.

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٩م قام الدُّكتور روبرت رانسي رئيس أساقفة كانتربري بزيارة الفاتيكان على رأس وفد كبير من الكنيسة الأنجليكانيَّة، والتقى بالبابا يوحنَّا بولس الثَّاني (١٩٧٨-٢٠٠٥م) بابا روما. وفي ختام الزِّيارة صدر عن الحبرَين بيانٌ، أكدا فيه التزامهما بتحقيق الوحدة المرئيَّة، وتمام الشَّركة بين كنيستيهما، مع اطلاعهما على كلِّ العقبات التي تحول دون ذلك. وتشكِّل رسامة بعض النِّساء لدرجات الكهنوت والأُسقفيَّة، أسوأ العقبات التي تدخُل في إطار المسائل العقائديَّة والكنسيَّة التي لا يمكن أن يقبل بها الفاتيكان أو يقدِّم بشأنها أيَّة تنازلات.

الإصلاح الكاثوليكي في القرن السَّادس عشر الميلادي

كان على الكنيسة الرُّومانيَّة أن تسارع وتُثبت موقفها بخطوات ثلاث حازمة ومصيريَّة:

١- أن تؤكِّد وتوضِّح وتعلن مبادئ الإيمان الكاثوليكي التي أخذ الإصلاح البروتستنتي ينكرها ويرفضها.

٢- أن تَعمَد إلى تقويم الشَّطط والمخالفات والعبث بالدِّين، الأمر الذي كان سبباً في تذمُّر الكاثوليك أنفسهم منذ أمد بعيد.

١٣- تغيَّرت سلالة الإرث للعرش سنة ١٩٣٦م عندما تنحَّى الملك إدوارد الثَّامن عن العرش بسبب رغبته في الزَّواج من سيِّدة أمريكيَّة مطلَّقة. وقد تحصُل في بريطانيا نفس المشكلة، إذا ما تزوَّج الأمير تشارلز بعد طلاقه من مطلَّقة، ولكن الرأي العام والعادات والتَّقاليد في تطوُّر مستمر. ويمكن القول: إنَّ الطَّلاق في بريطانيا لم يعُد شيئاً منبوذاً، كما أنَّه ليست هناك دلائل تشير إلى أنَّ الكنيسة الأنجليكانيَّة، وإن امتعضت من كون رئيسها مطلَّقاً، أنَّها ستنبذه أو ترفضه أو أن تحتج عليه.

ولا يتقاضى أفراد العائلة الحاكمة بدءاً من صاحب العرش أيَّ راتب حكومي، فلهم ممتلكاتهم الخاصة، أو قد تُحدِّد لهم الحكومة مخصَّصات من الخزينة العامة، ويترتَّب عليهم دفع الضَّريبة عن دخلهم بعد خصم المصاريف التي يتكبَّدونها في تأدية المهام الرَّسميَّة التي تحدِّدها لهم الحكومة.

٣- أن تقرِّر أخيراً الحد من تقدُّم الإصلاح البروتستنتي، وتعمل على استرداد المناطق الكاثوليكيَّة التي سلبها.

ففي سنة ١٥٤٠م ثبَّت البابا بولس الثَّالث (١٤٦٨-١٥٤٩م) القوانين التَّأسيسيَّة للرَّهبنة اليسوعيَّة (الجزويت) التي أسَّسها إغناطيوس دي لويولا[١٤]، ولقد لعبت الرَّهبنة اليسوعيَّة دوراً هاماً في اتخاذ الحلول الجذريَّة للقضاء على كلِّ ما كان يعوق مسيرة الكنيسة الكاثوليكيَّة. كما أنشأ البابا المذكور محكمة التَّفتيش التي أُسند إليها مهمَّة الحفاظ على صحَّة الإيمان الكاثوليكي بمطاردة ومحاكمة كلِّ الذين ينحرفون عن الإيمان الكاثوليكي. وفي سنة ١٥٤٥م دعا إلى عقد مجمع عُرف في التَّاريخ باسم ''المجمع التِّريدنتيني'' والذي عُقد في ترانتو، وبدأ المجمع جلساته ولم يحضر فيه سوى ٣٤ عضواً من ٥٠٠ أُسقُف كاثوليكي في العالم. وتوقَّف المجمع ثلاث مرَّات ثم عاد واستأنف أعماله، واستمر معقوداً من سنة ١٥٤٥م - سنة ١٥٦٣م. ووضع قرارات تختص باستخدام اللُّغة القومية في الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، وبإنشاء الإكليريكيَّات التي كانت لها انعكاسات هامة على مستقبل الكنيسة الكاثوليكيَّة. ومن بين قرارات هذا المجمع:

• ''إنْ قال أحدٌ أنَّ يسوع لم يؤسِّس جميع أسرار الشَّريعة الجديدة، وأنَّ هناك أكثر أو أقل من سبعة أسرار، وأنَّ أحد هذه السَّبعة ليس سراً بالمعنى الحصري، فليكن محروماً''.

لقد كانت الأمور العقائديَّة الكاثوليكيَّة التي وضعها هذا المجمع غير محدَّدة صراحة في الماضي، ولكنَّ المجمع وضعها لمقاومة المذهب البروتستنتي من وجهة نظر كاثوليكيَّة. أمَّا الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة فكانت بعيدة عن هذا الصِّراع بين الكاثوليكيَّة والبروتستنتيَّة، على الأقل في البداية.

أهم الملامح التي تميِّز التَّعليم الأرثوذكسي في الشَّرق عن نظيره في الغرب

+ ليس في الكنيسة الأرثوذكسيَّة حتى اليَوم تمييز واضح بين أسرار الكنيسة المعروفة لدينا[١٥]، وبين بعض الممارسات الطَّقسيَّة الأُخرى، مثل قُدَّاس تبريك الماء (اللَّقان)، إلى جانب تكريس المذابح، والكنائس، والمعموديَّات، والأيقونات، وكذلك الصَّلاة على المنتقلين، والرَّهبنة ... إلخ.

+ لم تهتم الكنيسة الشَّرقيَّة كثيراً بتفسير قانوني أو منهجي لكلمة ''سر''، إذ ترسَّخ في وجدانها وتعاليم آبائها، 'أنَّ السِّر، هو حياة إلهيَّة، وفعل إلهي فائق على الإدراك، أودعه الله في الكنيسة، لمنفعة المؤمنين وخلاصهم'. فعاشوا ينعمون بسرِّ المسيح والكنيسة، بسرِّ الثَّالوث والخلاص، دون اجتهاد لتفسير معنى كلمة ''سر''. فكلُّ اجتهاد في تفسير قانوني لكلمة ''سر'' يُزيده غموضاً على غموض، ذلك لأنه إن استطعنا أن نفسِّر أو نشرح معنى ''السِّر''، ما صار السِّر سرًّا بعد. أمَّا السَّعي في هذا الشَّأن، فهو محاولة استيضاح لجوانب من السِّر الكنسي، في إدراك جُزئي له، على قدر ما يستطيع العقل أن يعقل لهذا الفعل الإلهي العظيم، الذي عمله المسيح له المجد في كنيسته المقدَّسة.

إنَّ كتابات الآباء في الكنيسة الأولى، تشرح وتفسِّر الأسرار من داخل الاحتفال اللِّيتورجي الفعلي بها، كون اللِّيتورجيَّا هي حياة الكنيسة وإيمانها. فالسِّر الكنسي ملتحم باللِّيتورجيَّا، ولا يكمل بدونها. فالشَّركة في الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة، هي الضَّمان الوحيد لتفسير السِّر تفسيراً اختباريًّا حياتيًّا معاشاً. وهو ما لم يفعله اللاَّهوت الغربي، الذي عزل السِّر عن اللِّيتورجيَّا، وجعله أداة نعمة قائمة بذاتها، فأفقد اللِّيتورجيَّا وظيفتها، والتي هي استعلان السِّر وغايته. فسرُّ الإنجيل نفسه، لا

١٤- هو مؤسِّس جمعية يسوع سنة ١٥٣٤م، التي كانت البداية لنشأة الرَّهبنة اليسوعيَّة. وُلد في الباسك سنة ١٤٩١م، وتعرَّف على الله سنة ١٥٢١م، وتعلَّم اللاَّتينيَّة والفلسفة واللاَّهوت، وسافر إلى باريس سنة ١٥٢٨م لمتابعة دروسه هناك، وتعرَّف على يوحنَّا كالفِن المصلح الفرنسي، وصاحب مذهب الكالفِنيَّة.

١٥- في غضون القرن الثَّاني عشر الميلادي فإنَّ (القدِّيس) فيكتور St. Victor (+١١٤٢م) عدَّ الأسرار إلى حوالي ثلاثين سرًّا مقسِّماً إيَّاها إلى ثلاث مجموعات. أمَّا بطرس لمبارد Peter Lombard أُسقُف باريس (١١٠٠-١١٦٠م) فقد جعلها سبعة أسرار، وهو الرَّقم الذي أصبح تقليداً ثابتاً، انتقل فيما بعد من الغرب إلى الشَّرق. وفي مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩م تقرَّر بقانون، أنَّ الأسرار الكنسيَّة هي سبعة. وتبعه أيضاً مجمع ترنت (١٥٤٥-١٥٦٣م)، حيث وُضعت في هذا المجمع تحديدات منهجيَّة للأسرار الكنسيَّة (Cf. ODCC., 2nd edition, p. 1310). وفي الكنيسة الشَّرقيَّة - نقلاً عن الغرب - تحدَّدت الأسرار الكنسيَّة بسبعة أسرار، وذلك بعد القرن الرَّابع عشر الميلادي.

يُستعلن إلاَّ من داخل الكنيسة ونظام عبادتها وصلواتها. لأنَّ معرفة الإنجيل نفسه، إذا لم تؤدي إلى حياة كنسيَّة تقويَّة، تظلُّ معرفة إنجيليَّة عقليَّة، حتى وإن لبست هذه المعرفة ثوباً من تأمُّلات روحيَّة، أو تفسيرات لاهوتيَّة.

ولا نستطيع أن نفصل أسرار الكنيسة عن أسرار اللاَّهوت، فسرُّ المعموديَّة يُعلِن سرَّ موت المسيح وقيامته، بل ويحقِّقه. وسرُّ التَّجسُّد بكلِّ تدبير الخلاص فيه، كامن في سرِّ الإفخارستيَّا ومحقَّق فيه ... إلخ.

ويعرِّف ''الكاتيشزم'' (التَّعليم المسيحي) الغربي السِّر الكنسي بأنه ''علامة خارجيَّة منظورة تهبنا نعمة داخليَّة روحيَّة ...''، وهو تكرار لتعريف القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) للسِّر. أمَّا الكنيسة الأرثوذكسيَّة في الشَّرق المسيحي فلم هذا النِّظام.

+ تمارس الكنيسة الأرثوذكسيَّة المعموديَّة بالتَّغطيس، وتمنح الميرون بواسطة الكاهن بعد المعموديَّة مباشرة حتى للأطفال، حيث ينضم الأطفال إلى عضويَّة الكنيسة مباشرة ومنذ طفولتهم.

+ تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة بأنَّ خُبز وخمر الإفخارستيَّا يصيران بعد التَّقديس جسد ودم المسيح الأقدسَين، لكن ليس بمفهوم التَّحوُّل الجوهري أو الاستحالة الجوهريَّة Transubstantiation وهو التَّعليم الذي يحاول الولوج إلى قلب السِّر نفسه، وشرح كيفيَّة حضور المسيح في سرِّ الإفخارستيَّا بأسلوب فلسفي! أمَّا مضمونه فهو أنَّ عنصري الذَّبيحة، أي الخُبز والخمر ''**يتحوَّل جوهرهما**'' إلى جسد المسيح ودمه الأقدسَين، ولا يبقى منهما سوى العَرَض فقط. أو بتعبير آخر، أنَّ الخُبز والخمر بعد التَّقديس، لا يصيران موجودَين بعد، بل عرضاهما فقط. ولقد بدأ هذا الموضوع يشغل الفكر الغربي منذ القرنين التَّاسع والعاشر للميلاد، مع ظهور ''اللاَّهوت المدرسي''، وانتشر كثيراً منذ القرن الثَّاني عشر الميلادي، وتقنَّن كعقيدة كاثوليكيَّة في مجمع لاتيران Lateran الرَّابع سنة ١٢١٥م، وبلغ ذروته على يد توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م). وظلت مشكلة خُبز الإفخارستيَّا المختمر، أو غير المختمر Azymes تسبِّب توتُّراً شديداً بين الطَّرفين

+ يحتل تكريم الأيقونات والتَّشفُّع بالقدِّيسين مكاناً رفيعاً في الكنيسة الأرثوذكسيَّة كما سبق أن ذكرتُ. وإن كان التَّشفُّع بالعذراء القدِّيسة مريم هو أمرٌ شائعٌ في النُّصوص اللِّيتورجيَّة، إلاَّ أنَّ تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة المختص بالعذراء عن موضوع ''الحبل بلا دنس''، فلا تعترف به الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

+ يؤمن الأرثوذكس بصعود جسد السيِّدة العذراء إلى السَّماء بعد نياحتها، ويحتفلون لذلك بعيد سنوي، بإقامة اللِّيتورجيَّة، برغم أنَّ ذلك لم يُحدَّد أو يُعلن رسميًّا كعقيدة.

+ طلب شفاعة وصلوات المنتقلين أمرٌ تؤكِّد عليه الرُّوحانيَّة الأرثوذكسيَّة، بل ونصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة. وليس هناك فرقٌ لُغوي بين ''الشَّفاعة''، وبين ''الطِّلبة أو التَّوسُّل''. ويخص التَّقليد الأرثوذكسي العذراء القدِّيسة مريم، والقدِّيس يوحنَّا المعمدان، وكلَّ طغمات السَّمائيِّين، بفعل الشَّفاعة. أمَّا باقي الآباء الرُّسُل، وكلُّ الشُّهداء، والقدِّيسين، فلهم الطِّلبة والتَّوسُّل من أجل الكنيسة المنظورة. وأمَّا تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة عن المطهر، فلم تقبله الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

+ تمنح الكنيسة الأرثوذكسيَّة العلمانيِّين دوراً فعَّالاً ورئيسيًّا في خدمتها، فمنهم اللاَّهوتيُّون البارزون، وأحياناً المرشدون الرُّوحيُّون Starets . وللرَّهبنة الشَّرقيَّة تأثيرٌ هائلٌ على العبادة الكنسيَّة، ومنذ القرن السَّادس الميلادي تقريباً، فإنَّ الغالبية العظمى من الأساقفة في الشَّرق المسيحي صاروا يُختارون من بين طغمة الرُّهبان.

+ كهنة الإيبارشيَّات الذين يخدمون كنائس المُدُن هم متزوِّجون عموماً، ولم تُصرّ الكنيسة الأرثوذكسيَّة أبداً على شرط عزوبيَّة الإكليروس Celibacy باستثناء الأساقفة حاليًّا، مكتفية بعدم زواج الكاهن مرَّة ثانية في حالة انتقال زوجته.

+ مجمع الأساقفة لأيَّة كنيسة أرثوذكسيَّة، هو السُّلطة العُليا فيها، ولا وجود لمفهوم عصمة رئيس الكنيسة، سواء كان هو بابا الكنيسة، أو بطريرك الكنيسة، أمَّا الكنيسة الكاثوليكيَّة فتؤمن بغير ذلك.